من نوره اشرقت اقطارها فقدت بريئةً من دياجي الظلم والظلم

وقال لما عمّر سيف الدين تنكز البرج الصغير في بيروت وكُتبت الابيات على حائطه:

يا لهُ معقلًا منيعًا رفيعًا وكنهُ بالسعود والاقبالِ
للمقرّ الشريف قد شيّدوهُ سيفِ آل الكرام اشرف آلِ
بزمان السلطان ملك البرايا اعني الناصرَ العديم المثالِ
زادهُ الله في الورى حسن شأنٍ بنموٍ ورفعةٍ وجلالِ

ولهُ ايضًا كتبها على باب الخان الذي انشأهُ تنكز ببيروت (١:

إنشاء ذي الخان بأمر الاشرف ألسيفِ تنكز سيّد النوّابِ
ملكٌ حوى العلياء بالسعي الذي اعياهُ عن متقادم الأنسابِ
بياضُ عرضٍ واحمرارُ صوارمٍ وسوادُ نقعٍ واخضرارُ جنابِ (٢
لا زال منصورَ اللواء لبأسهِ تعنو الملوكُ وتخضعُ الارقابُ (٣
والدولة الغرّا بفائض عدلهِ مشمولةٌ ابدًا على الاحقابِ
وبهِ يفوز المسلمون بنصرةٍ عزّت على الاعداء والطُلّابِ (٤٧
والدين والدنيا بطولِ بقائهِ يتمتّعان بزهو حُسن شبابِ

(البقية تأتي)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل الثامن

قلب الام

في ذات مساء بينما كانت الشمس قد ارشكت أن تغيب مرسلةً اشعتها الذهبية على قمم صنين المتعمّمة بالثلوج وكان البحر ازرق والجوّ صافيًا وحواشي السحب متلونة بالوان وردية وبنفسجية والهضاب والوهاد تسطع لامعةً بما ينعكس عليها من الاشعّة.

١) روى هذه الابيات ابن سباط في تاريخهِ ٢) في تاريخ ابن سباط: اخضر وحابِ
٣) كذا ورد بالاقواه. وجمع الرقبة المأنوس «رقاب» كما لا يخفى

وبينما كان الهواء نقيًّا والطيور تتراجع الى وكناتها والفعلة يعودون من اشغالهم والبنات والنساء يخرجن بجرارهنّ الى العين لاجل الاستقاء. خرجت مريم كغيرها من بيتها الذي كانت تعدهُ فارغًا بعد مفارقة فاضل اياها. نعم ان ابنتها وردة كانت باقيةً عندها تسليها ولكن قلب الوالدة يأبى ان يتعمَّم بل انهُ يحبّ كل ولد كما لو كان فريدًا ويفرح ويحزن من اجله ولا شيء يقوى على ان يصرفهُ عن ذلك. وعلى هذا فان مريم وجّهت افكارها الى فاضل لا تزال تفكّر في ساعة انفصالهِ عنها يومَ فارقها قبل طلوع النهار راكبًا مع بعض الرفاق عربة قصدت بهم مدينة بيروت. وكانت هي اذ ذاك مقيمةً على عتبة البيت تشيّعهُ بدموعها وزفراتها الى ان أتت ابنتها وردة وسكنت جأشها

ثمَّ ابصرت في اليوم التالي من بعيد سفينة خارجةً من ميناء بيروت فجزمت انّها تقل ولدها. ولمَّا رأتها تتقلّب ذات اليمين وذات الشمال من جرّاء العاصفة أخذ قلبها يرتجف خوفًا على ولدها. لكنَّ السفينة ما لبثت ان غابت عن أبصارها كما غابت العربة في الامس مخلّفةً لها جزيل الهم والقلق

فمذ ذاك اليوم المشؤوم كانت مريم تصعد كلَّ صباح على هضبة تُشرف على البحر ومرمى بيروت لعلّها تستروح شيئًا من اخبار ابنها فاضل وكان يخال لها انَّ كلّ مركب يأتيها بمكاتيب من ابنها العزيز يعلمُها بتمام صحّتهِ وبمكاسبهِ الطائلة في اميركة ولا شكَّ انَّهُ يضمّن في طيّ رسالتهِ الى امّهِ اوراق حوالة تشهد على ثروتهِ

واذا صار المساء وسمعت مريم بصوت العربة القادمة من بيروت كانت تسرع الى الحوذيّ وتطلب منهُ بإلحاح مكاتيب ابنها. وكان الحوذيّ يجيبها انَّهُ لم يجد مكتوبًا باسمها بين مكاتيب البريد فترجع تلك المسكينة الى بيتها صامتة قلقةً فتقوى عليها الاكدار وتلعن تلك الساعة التي بها سمحت لولدها بان ينفصل عنها ويركب الاخطار للحصول على اموالٍ باطلة يحول دون اكتسابها خرطُ القتاد

الّا انَّ عامل الرجاء كان يعود فيسود على قلب مريم فتتصوَّر ابنها رجلًا غنيًّا مكرّمًا لاجل ثروتهِ يقصدهُ الكبير والصغير اذا ما عاد من اميركة وهو يسكن في قصر شاهق بناهُ بذات جيبهِ

تلك كانت افكار مريم منذ نحو شهر يتنازعها تارةً الحزن فيستفزّها وتارةً الامل فتعلّل نفسها بالاماني

ولكن لمّا رأت انّ الايام تمرّ عليها وانّ الاخبار لم تزل منقطعةً عنها زاد همها وغمّها ولم تعد تجد راحةً مع ما كانت ابنتها وردة تبذلهُ من السعي لتطيّب بالها وتحمد بلبالها

وفي الماء الذي بلغنا اليهِ كانت نساء القرية قد خرجن وجرارهنّ على رؤوسهن ليستقين ماء من العين. فاخذ الحديث مأخذهُ بينهنّ حتّى علّت الجلبة. واذا بمرتا وصلت بجرّتها فقالت:

— أتعرفنَ ما اخبرتني بهِ ثريّا ؟

فتمدّدت للحال الاعناق الى مرتا وصرخت الاصوات: وما الخبر ؟ وما الخبر ؟

— انّهُ خبر مهمّ أعلمتني بهِ ثريّا سرًّا وتوسّلت اليّ بألّا أذيعهُ

فما سمعتْ رفيقاتها باسم السرّ حتّى انتشرت الآذان وتفتّحت الاعين وكثر اللغط ثم سألنَ مرتا بالحاح أنْ: بالله عليكِ اخبرينا ما جرى

وكانت مرتا في تلك الاثناء ساكتةً باسمةً كأنّها تبخل بسرها. الّا انّ السرّ على النساء عبء باهظ لا يجدنَ راحةً الا بافشائهِ. فقالت مرتا بعد قليل:

أتعرفنَ سفينة الكنفو ؟

— نعم هي السفينة التي ركبها ابن مريم فاضل منصور منذ شهر

— هي هي

— فماذا حدث لها ؟

— سمعتْ ثريّا زوجها يقول عند عودتهِ من بيروت انّ الكنفو تأخر ميعاد وصولهِ الى مرسيلية بيوم

— والسبب ؟

— السبب النوء الهائل الذي حدث منذ اسبوعين

قالت منّة: هي العاصفة التي حدثت عندنا لمّا كسرت الريحُ ثلاث شجرات توت في ملكنا واقتلعت مندياني غبريل وتزلت الصاعقة على كنيسة مار شليطا فنفذت فيها وجالت في ربعها كالسان حيّة الى ان ساخت في الارض وتوارت عن العين — ولكن

زجوك يا مرتا ان تتممي حديثك وتفيدينا ما جرى للكنعو

— أصابها نوء عظيم كاد يغرقها وكانت الامواج تصدمها حتّى اتلفت قسماً من ادواتها واضطُرَّ الربّان الى ان يرمي قسماً من شحن السفينة في البحر ليخفف عنها

— يا ستّار . وكيف شاع هذا الخبر ؟

— قد ورد لفرج الله عيراني من اهل بيروت كتاب من ابنهِ يخبرهُ بتفاصيل سفره على سفينة الكنعو وهذه الرسالة قد قرأها زوج ثريًا في بيت الخواجا عيراني

فدارت للحال الالسنة واخذت كلّ امرأة تتحدّث في الامر وتبالغ فيهِ وتزيد ظروفًا جديدة . حتّى قطعت مرتا كلامهنَّ فقالت :

وفي الرسالة المذكورة غير ما رويتُ لكنْ

— قولي قولي لا تخفي علينا شيئًا

— يُذكر فيها انَّ امرأة اسمها ساسون عبد النور من جُدَيدة . . .

— انا اعرفها رأيتها من سنتين في بيت ابيها في الجديدة فماذا كان من امرها ؟

— يُذكر انها ماتت

— ماتت ؟

— نعم ماتت من شدّة اتعاب السَّفر وألقيت جثتها في البحر

— يا لله — يا مسكينة — يا منكوبة الحظّ — الله يرحمها ويساعد اولادها

— ولكن ارجوكنَّ الزمنَ السكوت فها امّ فاضل قادمة

وبينما كنَّ في هذا الحديث أتت مريم كمألوف عادتها لتملأ جرّتها وابنتها وردة في اثرها . فلمّا وصلت وانزلت جرّتها عن رأسها حيّتها النساء بالسلام فاجابت مريم على سلامهنَّ شاكرةً للطفهنَّ . فسألتها فريدة : هل ورد عليك خبر من فاضل ؟

— واحسرتاه لم اعلم بعد من اخبارهِ لا خيرًا ولا شرًّا وانا في قلق عظيم بسببهِ . .

قالت ذلك وتنهّدت الصعداء ثم اطرقت صامتة بينما كانت عينا وردة مترغرغتين بالدموع

فسكت الجميع هنيهة ثم اخذن يتوشوشنَ بينهنَّ فسمعت مريم من كلامهنَّ ألفاظًا متقطّعة ميّزت بينها « كنعو . . . عاصفة . . . غرق » فاقشعرَّ بدنها ووقفَ شعرها فقالت : « ما لي اراكنَّ تتهامسنَ بينكنَّ . . أفتعلمنَ شيئًا عن ابني فاضل . . فناشدتكنَّ

الله ألا تبخلنَ عليَّ بالخبر الصحيح . أفيكون اصابهُ سوء في العاصفة الاخيرة التي هبَّت في البحر وفي كلّ لبنان . ويلاهُ ما لك يا ولدي تركتني وعرَّضتَ بنفسك الى هذه الاهوال » . فجعلت رفيقات مريم يُفرخنَ رَوعها ويطيّبنَ بالها . فأبت ان تقبل تعزية ولمَّا امتلأت جرَّتها رجعت وابنتها الى بيتها

فلمَّا غابت مريم عن العيان عادت النساء الى حديثهنَّ وجعلنَ يتلهَّفنَ على فاضل واسمهِ واذا بصوت قرقعة السياط طرق الآذان . فصرخنَ جميعاً : وصلت العربة من بيروت

ولم تزل العجلة تقترب بسيرها حتى بلغت العين ونزل الركَّاب . فحلَّقت المستقيات حولهم وتزاحمن يطلبن منهم الاخبار . فاخذ احدهم جريدة البشير وقال : « اسمعنَ الاخبار الاخيرة » . وجعل يقرأ منها حتَّى وصل الى الاخبار الخارجيَّة وكان من جملتها نبذة منقولة عن جريدة من مرسيلية مضمونها « انَّ لبنانيًّا اسمهُ فاضل عند نزولهِ الى البلد تعقَّبهُ بعض الشطَّار وسلب منهُ دراهمهُ » . فصرخت مرتا : هذا فاضل بن مريم . وقالت أُخرى : فاضل رجل خبير لا يمكن ان يخدعهُ أحد . لعلَّهُ آخر . فقال الحوذي : لا تتخاصمنَ فانَّ معي كتابًا لمريم عليهِ طابع « بوردو » واظنُّهُ من فاضل فمنهُ يمكننا ان نقف على صحَّة الخبر

قال هذا واسرع الى بيت مريم ليعطيها الرسالة . وكانت هذه الامّ المسكينة عند رجوعها من العين القت بنفسها على حصيرة تذرف الدموع السخينة

فسمعت اذ ذاك طارقًا يطرق الباب ويدعوها باسمها فقامت من ساعتها وفتحت الباب . فما اعظم ما كان فرحها اذ عرفت كتابة ابنها وامكنها ان تقرأ مضمونهُ بهِ يعلمُها ابنها فاضل انَّهُ وصل الى بُوردو بالسلامة وانهُ على وشك السفر الى نيويورك واضعًا على الله ثقتهُ بالنجاح

فما طالعت مريم هذه الاسطر الوجيزة حتَّى تبدَّدت منها الاحزان وتهلَّل وجهها فرحًا ثم خرجت لتبشِّر بذلك جاراتها

وكانت المستقيات لمَّا عرفنَ انَّ مريم اتاها مكتوب من ابنها اسرعن الى دارها ليطَّلعنَ على اخبار فاضل ويهنئن امَّهُ بسلامتهِ . فالتقين بها عند الباب وهي خارجة الى جاراتها فأعلمت الجميع بوصول ابنها سالمًا الى بوردو . وزادت على ذلك انَّهُ لا بدَّ الآن ان يكون وصل الى سان فرنسيسكو وباشر بالتجارة ولربَّما يأتيني منهُ صرَّة دراهم في البريد القادم

وبينما مريم تخبر بهذا الخبر المفرح نساء القرية اذ قدم على بغتة جندي من جند لبنان راكبًا فرسهُ فلمَّا صار بازاء باب البيت سأل الحضور: أليس هذا بيت مريم منصور؟

قالت مريم: نعم وماذا تريد منها؟

— هذه بطاقة مرسلة باسمها

ثمَّ سلَّمها غلافًا كبيرًا. فاستلمتهُ متحيِّرة وطالعت عنوانهُ فاذا باسمها مكتوب عليهِ باحرف كبرى لم يمكنها الارتياب في انَّ الرسالة تعنيها

وكانت الجارات يحدقنَ بالنظر الى الكتابة والى الجندي الآتي بها. وهنَّ لا يشككن انها تتضمَّن سرًا ما. فانتظرنَ بفروغ الصبر ليعلمنَ مضمونها

ففضَّت مريم الكتاب بسرعة وكان عليهِ ختم حكومة الجبل واذا بهِ مكتوب:

من بعبدات ١٨ ك١ — ١٨٩

« افادنا قنصل الولايات المتَّحدة في بيروت انَّهُ ورد عليهِ رسالة تلغرافيَّة من نيويورك هذا حرفها: انَّ المسمى فاضل منصور من قرية الوادي في لبنان الراكب سفينة «مدينة بوردو» وصل في ١٤ الجاري الى ميناء مدينتنا. ولمَّا لم يؤذن لهُ بالنزول الى البرّ بصفة كونهِ مهاجرًا فقيرًا استولى عليهِ اليأس فرمى بنفسهِ في البحر وغرق. والى الآن لم يوجد لقبرهِ من اثر فأعلموا اهلهُ بالخبر. . . »

فما انتهت مريم الى هذه الاسطر حتَّى سقطت مغشيًّا عليها فوق الحضيض كأنَّها أصيبت بضربة صاعقة

(ستأتي البقية)

مطبوعات شرقية جديدة

ABRÉGÉ DE GÉOGRAPHIE
DE LA PALESTINE ET DE LA SYRIE
par l'Abbé Th. Vazeux

كتاب مختصر جغرافيَّة فلسطين وسوريَّة بالفرنسية

هذا كتاب كانت اليهِ مدارس بلادنا في حاجة ماسَّة ليقف الاحداث من السوريين على احوال وطنهم واكثرهم يجهلونها جهلًا مُطبقًا مع كونهم يعدُّون لك اوصاف الاقطار الاجنبيَّة لا يكاد يفوتهم منها شيء. فجاء هذا التأليف في وقتهِ لسدّ هذا الخلل